المحاضرة الثالثة

تمازج الثقافات

ما ارى حاجة الى ان اعيد في هذا المقام ما قلته في دراسة المصادر الادبية ، فقد عرفتم ولا ريب في ذلك كيف يجب علينا ان نقرأ كلام الكاتب اوشعر الشاعر اوخطبة الخطيب ، عرفتم كيف يجب علينا ان نحيط بروح المؤلف و بافكاره وبعواطفه ، وننظر في اتصال هذه الامور النفسية بعضها ببعض وفي تفاصيلها ومظاهرها ، عرفتم كيف ينبغي لنا ان نبحث عن بيان المؤلف وفنون افصاحه ، وعن خصائص لغته وأسلوبه ، وفي الجملة فقد عرفتم كيف ينبغي لنا ان ندرس المصادر الادبية واذا قلت : دراسة المصادر الادبية ، اردت بذلك التعمق في التنقيب عن فكر المؤلف وعواطفه ، والتمكن من معرفة مراميه والوصول الى تلك الذكريات التي كانت تخطر بباله في ساعات تأليفه وكتابته ، فاذا كنا ندرس كلاماً فكأننا نحاول ان نقوم مقام صاحب هذا الكلام ونبعث قبالة اعيننا حالة عقله من مرقدها ، وننعش فكره وانفعالاته بعد ان ذهب اثره ، وانطوى ظله ، ولم تبق منه الا صفحات لا نرى فيها في فاتحة الامر غير صور بعيدة عنا ، وتعابير جامدة لا روح فيها ، فاذا عالجناها انتفضت من مدافنها فأصبحت صوراً ناطقة تشعر وتفكر .

كان يجب عليّ بعد ان فرغت من هذا التمهيد ان اشرع واياكم في قراءة شعرائنا الثلاثة : ابي الطيب وابي عبادة وابي تمام ، وانا لا اشك في ان لهذه الاسماء العربية صدى في آذانكم لا تجده لغيرها من الاسماء غير اني اذا كنت قد استعنت بطائفة من آراء الافرنجة على الخوض في موضوع للعرب فيه المقام الارفع والمحل الاشمخ ، فما اردت بذلك ان اكفر نعمة ادب ذهبت في الشغف به كل مذهب ، مااردت ان اكفر نعمة لغة امتزجت بالنفس محبتها ، والعود غض والغصن رطيب ، الا انه اذا كان يتيسر لي الاستشهاد ببعض آراء شيوخ ادبنا في قديم الدهر كالجاحظ واشباهه ، ومن هم اشباه الجاحظ ، فما كان يتيسر لي الاهتداء الى كل الآراء ، والادب قد لبس في هذا العصر برداً قشيباً فحدثت فيه حوادث وعلقت فيه عوائق ، ونهجت مناهج وسلكت مسالك ، فلا مندوحة لنا عن الاقتباس من بعض الافرنجة ولا غضاضة في ذلك فقد اخذوا عنا فأخذنا عنهم وتلك الايام نداولها

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بين الناس ومازالت الامم في قديم الدهر وفي حديثه يقتبس بعضها من بعض وقديماً تمازجت الثقافات فأدى تمازجها الى العواقب المحمودة في عبقرية الفكر .

لنلتفت قليلاً الى القرون الخالية فلننظر الى الرومان كيف اقتبسوا ادبهم من اليونانيين فقرأوا كتبهم ونقلوا طرائقهم ولننظر الى الادب الفرنسي في القرون الوسطى كيف انبلج نوره من أفق اللاتينية وهذا « سبنسر » اخذ عن الايطالية في ايام تجديد ادبها ، وهذا الشاعر الانكليزي « تومسون » قد اثر في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر في مؤلفي فرنسة من العصرين المذكورين وقد كان « فولتير » بعبد الكاتب « اديسون » وكان « روسو » و « ديدرو » بعبدان « ريشاردون » واي تأثير اعظم من تأثير شاعري الانكليز « شكسبير » و « بايرون » في الادب الفرنسي ، وقد كان شعراء الادب الوجداني في فرنسة متصلين الاتصال كله « بوالترسكوت » ومن « ميشله » الى « رنان » قد استنزل كتاب فرنسة الذين نظروا في مصاير النوع البشري وحيهم من المؤرخ الالماني « هردر » وشاعر الالمان « غوتي » استنزل وحيه من ادب المتقدمين وفي القرنين الثامن عشر والتاسع عشر اقتبس الاسبانيون ادبهم من شعراء فرنسة مثل « موليير » ولم يقصر الروس في الاخذ عن الادب الغربي في القرن التاسع عشر ولم يحجم البولونيون عن اقتباس أدب فرنسة وايطالية والمانية وانكلترة .

مالنا وهذه الاعجميات فلننتقل الى ناحية اقرب . هذا ادب العرب نفسه ، أفلم يدخله شيء من حكمة الهند ، وفلسفة اليونانيين ، وادب الفرس ، وهذه مصر في عصرنا أفلم يكن للثقافتين الفرنسية والانكليزية اثر في كتابات ادبائها ، أفكان يستطيع اساتيذ ادبها ان يسلكوا هذا المسلك في ادبهم لولا معرفتهم بعض اللغات الاجنبيات .

معاذ الله ان ارمي في قولي هذا الى الخروج على عبقرية ادبنا فان الامة التي لا تتصل بماضيها لا تثق بحاضرها وآتيها ، وان لنا من هذا الماضي الشيء الذي نفخر به على وجه الدهر ، ان لنا من هذا الماضي محاسن لا تبلى بجبس الليالي ، ولكن تجديد الادب في هذا العصر امر لامندوحة عنه ، فان الافراط في المحافظة على هذا الادب لايقل ضرره عن الافراط في التجديد ، ولو شئتم لتلوت عليكم صفحة كتبها ابو الحسين احمد ابن فارس بن زكريا المقيم من الف سنة بوجه التقريب ، ما اظن احداً من ادباء هذا العصر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

يعقد فصلاً ابلغ من هذا الفصل في التجديد قال ابو الحسين :

« ومن ذا حظر على المتأخر مضادة المتقدم ، ولمه نأخذ بقول من قال : ما ترك الاول للآخر شيئاً ، وندع قول الآخر : كم ترك الاول للآخر ، وهل الدنيا الا ازمان ، ولكل زمان منها رجال ، وهل العلوم بعد الاصول المحفوظة الا خطرات الاوهام ونتائج العقول ، ومن قصر الآداب على زمان معلوم ، ووقفها على وقت محدود ، ولمه لا ينظر الآخر مثل ما نظر الاول حتى يؤلف مثل تأليفه ويجمع مثل جمعه و يرى في كل ذلك مثل رأيه ، وما تقول لفقهاء زماننا اذ نزلت بهم من نوادر الاحكام نازلة لم تخطر على بال من كان قبلهم ، او علمت ان لكل قلب خاطراً ولكل خاطر نتيجة ، ولمه حجرت واسعاً وحظرت مباحاً وحرمت حلالاً وسددت طريقاً مسلوكاً ، ولو اقتصر الناس على كتب القدماء لضاع علم كثير ولذهب ادب غزير ولضلت افهام ثاقبة ولكلت ألسنة لسنة ولما وشى احد خطابه ، ولا سلك شعباً من شعاب البلاغة ولمجت الاسماع كل مردد مكرر وللفظت القلوب كل مرجع ممضغ » .

ما اثقب نظر ابي الحسين رحمه الله ! ما اهدى فكره ! ما اصفى ذهنه ! لو اقتصر الناس على كتب القدماء لضاع علم كثير ولذهب ادب غزير ، ان عقل البشر ينبسط افقه من عصر الى عصر ، ويتسع مجاله من دهر الى دهر فيولد في انبساط هذا الافق واتساع هذا المجال الفاظاً ومعاني لم تك من قبل ، و ينشئ الادب لهذه المعاني اساليب طريفة ويفرغها في قوالب حديثة ، وعلى هذا يتنقل الادب من طور الى طور ويتدرج من حال الى حال على تعاقب الاحقاب ، ولو ثبت هذا الادب على اساليب محدودة لاتى عليه حين من الدهر لم يك فيه شيئاً ، لو تملص هذا الادب من عوامل الحضارات والثقافات لما وسع شيئاً اننا نجد مذاهب تولد ، ومذاهب تموت والفاظاً تدفن والفاظاً تبعث واساليب تعيش واساليب تنقرض ، ما اعظم انقلاب الافكار ! قال الاستاذ « شارل ريشة » احد اعضاء معهد باريز :

« يسير العلم في سبيله سيراً تحار ثواقب الانظار في سرعته ، على ان العلم لا يزال في عنفوان امره ، وريعان عمره ، فالعالم « ارخميدس » على نبوغ فضله و براعته ، كان يجهل ما يعلمه المعلمون اليوم في المدارس الابتدائية ، واجهل تلميذ من تلاميذ المدارس التجهيزية يعرف من العلوم اموراً يجهلها العالم « غليله » نفسه ، ما بين العالم « فرنكلان » وبين

العالم « الثنين » مائة وخمسون سنة فتصور مسير العلم في مائة وخمسين سنة ، ما اعظم انقلاب الافكار ! لم يكن في القديم علم الاحافير ولا علم الجراثيم ولا علم التصوير ولا الطيران ولا خطوط الحديد ولا حل الطيف الشمسي ، فلا يتجاوز عمر علوم البشر قرناً ونصف قرن ، وما هو قرن ونصف قرن ؟ المشي غير وئيد ، اننا نسير في معرفة الاشياء على سلسلة هندسية متصاعدة وفي يوم من الايام سيكون للرجل بفضل ما يقتبسه من العلوم سلطان عظيم على المادة مهما اختلفت أشكالها » .

هذا ما قاله (شارل ريشه) في كتابه العالم . ولو قلتم لي وما هي الاواصر بين العلم والادب لأجبتكم بان العلم اذا امتد سلطانه فانه لا يخلو من التأثير في الفكر وبالادب كما أشرت الى ذلك في حديثي الاول تستفيض مذاهب الفلسفة والعلم في طبقات الناس فتعمل عملها في أوضاع الجماعات ، فالادب ظهير العلم ومعينه ، ولو نظرتم في تخالط الامم في هذا العصر وتقارب جماعاتها ، وشيوع لغاتها ، وآثار عقولها ، لرأيتم ان الثقافات لا مندحة لها عن التمازج والتواصل ، فالامم يأخذ بعضها عن بعض ويهتدي بعضها ببعض ، لا شك في ان لكل أمة ثقافة أدبية خاصة بها تصلح لها وقد لا تصلح لغيرها من الامم غير ان تمازج الثقافات اذا روعي فيه روح الامة وروح لغتها أفضى الى الخواتيم الحسنة في نتائج العقول وثمرات الالباب لنضرب مثلاً لذلك .

قلت : لكل أمة ثقافة أدبية خاصة بها ، فاذا قابلنا بين الشعوب السامية وبين الشعوب الآرية وجدنا ان الفكر في هذه الشعوب مختلف بعض الاختلاف فالفكر مثلاً في العبري لا يستطيع ان يتجرد من الصورة المادية التي تسترء وتغطيه ، ولذلك فانك تجد لغة التوراة لغة شعرية ساطعة الا انها تعجز عن بيان الفكرة المجردة ، فالذهن في الامم السامية عنيد فانه يحتفظ بالصورة ويحرص على طابع الانفعال المادي ، اما الذهن في الشعوب الآرية فانه أمرن وألين فهو ينسلخ من المادة ويرتفع الى تصور الفكرة المجردة وإدراكها ، ولعلك تجد في هذا التباين السبب في شيوع الفلسفة في الجنس الآري وانقطاعها في الشعوب السامية ، لان التجريد من خصائص الفلسفة ، والشعوب السامية أصحاب خيال فهم بعيدون عن التجريد[1] .

---

(١) رأي الاستاذ « دارمستتر » صاحب كتاب : حياة الالفاظ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

فلما تقارب العرب وبعض الشعوب الآرية كالفرس واليونانيين انتقلت آثار هؤلاء الى العرب والفلسفة من جملة هذه الآثار ، فهي نتيجة من نتائج تمازج الثقافات وما أظن ان الفلسفة خلت من رسوم حسنة في الفكر العربي .

ما أردت التبسط في هذا الموضوع ولا كانت غايتي استنهاض هممكم للتقليد فاني من المتشددين في الحرص على أوضاع أدبنا والاحتفاظ بمذاهبه ، الا ان هذا التشدد لا يمنعنا عن اقتباس ما يزيد في رونق لغتنا وأدبنا فاني أخشى اذا جمد هذا الادب ان يضيق عن استيعاب ما استحدثته حضارة العصر فاذا أخذنا في بعض الاحايين عن ثقافات الامم ما يحسن أخذه فلا حرج علينا في ذلك ، وقديماً استعان أدباؤنا بآثار من جاورهم وخالطهم فما نقصت مقاديرهم ولا خفت موازينهم ، فطلعوا على قومهم بادب مصقول الحواشي مهذب الاطراف ، على اني لا أقول بالمبالغة في الاخذ والاقتباس فان لميراثنا الادبي روحاً يجب علينا ان نحافظ عليه ، وان للعصر روحاً مالنا منه فلت ، فالتأليف بين الروحين صقال الادب ونموه .

دمشق : في ٢٣ تشرين الثاني سنة ١٩٢٩

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net